

الإرادة الحضارية في فكر مالك بن نبي (الأسس والمعوقات).

Research Title: The Civilizational Will in Malek Bin Nabi's thought (Foundations and Constraints)

د. فاطمة بور-

جامعة بومرداس-الجزائر. borfatima@yahoo.fr

د. عبد الرزاق سييب-

جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان-الجزائر. sib.abdou@yahoo.com

ملخص:

فحص مالك بن نبي وضع مجتمعنا فحصاً منهجياً دقيقاً، فوقف على السلبيات التي تعطل حركة المجتمع كما وقف على مواطن تواجدها، وأشار أنه يتطلب لتصفيتها التغيير والتجديد وفق مخطط شامل، يشمل الفرد أولاً ثم المجتمع بعد ذلك، فمالك بن نبي رأى أنه ظهرت في المجتمعات الإسلامية أمراض ثقافية نخرت جسم الأمة وحالت دون استنهاض الهمم، وشحذ الإرادة الحضارية نحو البناء والتجديد، ورأى العلاقة بين الإرادة الحضارية والإمكانية الحضارية علاقة سببية، فالحضارة هي التي تصنع مُنتجاتها وليست المنتجات هي التي تصنع الحضارة.

الكلمات المفتاحية: الإرادة الحضارية، الإمكان الحضاري، الأمراض الثقافية.

:Abstract

Having examined the situation of our society in an accurate methodical manner, Malik bin Nabi stressed on the drawbacks that impede the movement of society as well as on their origins. He pointed out that their elimination requires change and renewal in accordance with a comprehensive plan that includes the individuals first then the society. He made out that Cultural

diseases have emerged in Muslim societies which have decimated the nation and prevented the mobilization of energies, consequently, hindering the civilizational will towards construction and renewal. He considers that relationship between the civilizational will and the possibility of civilization is causal, since it is not the products that make civilization but it is civilization which generates its products.

Keywords: Civilizational Will, possibility of civilization, .Cultural Diseases

مقدمة:

يرى مالك بن نبي أن الحضارة تقوم على أساسين رئيسيين هما: الإرادة الحضارية والإمكان الحضاري وفي تعريفه للحضارة على أنها: "مجموعة الشروط المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يقدم الضمانات الاجتماعية لكل فرد فيه"⁽¹⁾. يؤكد على أن للحضارة وظيفتان، الجانب المعنوي هو الإرادة الحضارية والجانب المادي هو الإمكان الحضاري، وكلما تضخم الإمكان الحضاري وطغى خفتت الإرادة الحضارية، فالعالم الإسلامي اليوم يعيش في مرحلة يتوفر فيها الإنتاج التكنولوجي كقوة تراكمية لغير خدمة الإنسان، فقد الإنسان المسلم الثقة بذاته لأنه يعيش مشكلة على المستوى النفسي، لأن الاستعمار لم يستهدف تحطيم البلاد الإسلامية ماديا فقط، بل ذهب إلى أخطر من ذلك "فهو يريد تحطيم كل إرادة أو شبه إرادة تدفع الإنسان إلى التقدم والحضارة"⁽²⁾.

فزرع في نفسية المسلم الانبهار بكل ما هو غربي واحتقار كل ما هو عربي إسلامي، وبذلك أصبح الإنسان المسلم "مهانة كرامته فردا كان أم مواطنا عالميا ... والمسلم الآن يمشي على أرض المهانة بحيث يحتقره أحيانا أخوه المسلم، وأحيانا يحتقره الأجنبي عدو الإسلام، لذا يجب أن يرتفع المسلم إلى مستوى الحضارة"⁽³⁾

وقد استعمل مالك بن نبي مصطلح "البواعث المعلّلة" للدلالة على مفهوم الإرادة في كثير من مؤلفاته، حيث يرى "أن النشاط البشري لا يمكنه أن يُحدّد بمعزل عن الطرائق التي تشرط إنجاز العمل ولا بمعزل عن بواعث المعلّلة ولذا فهو يتضمن بالضرورة محتوى فكريا يتلخص فيه كل التقدم الفني والاجتماعي"⁽⁴⁾.

فالبواعث النفسية أو الإرادة الحضارية هي المحركة لكل نشاط فردي أو جماعي مما يؤدي إلى تحريك عجلة الحضارة ودخول الدول في ركبتها.

وقد أعطى مالك بن نبي أمثلة كثيرة تبين دور البواعث المعلّلة في صنع تاريخ الأمم، ومن بينها الثورة الجزائرية التي توصل من خلالها الشعب الجزائري-رغم بساطة الأدوات المستعملة في كفاحه المسلح-من انتزاع استقلاله من استعمار استعمل كل الوسائل المادية والمعنوية لإبادة هذا الشعب وسلب ممتلكاته لكنه لم يستطع سلبه الجانب الفكري الذي اكتسبه من تربيته الاجتماعية. فما كان إلا أن صنع ثورة مجيدة، تمخض عنها استقلال الجزائر واسترجاع السيادة الوطنية، لأن الباعث الفردي والجماعي للجزائريين كان يصبو نحو ذلك.

فاستنهاض الهمم وإعادة ثقة الفرد المسلم بذاته وقدراته وكذلك غرس مشاعر الفخر والاعتزاز في قلوب الأجيال بانتمائهم العربي الإسلامي، كل هذا كفيل بصنع أجيال تهفو روحها لخدمة الوطن والإنسانية، ويصبح النشيد الوطني "الذي يقود الشعب عندما تتعلق القضية بمصيره إلى ميادين القتال أو إلى حظائر الشغل، فهذا لا ينبعث من العدم، أو من مجرد ارتجال أدبي أو موسيقي، ولا حتى من صرخة الألم التي يطلقها إنسان جريح، فهذا النشيد لا يمكن أن ينبعث إلا من روح الشعب ذاتها، من تقاليده ومن تاريخه، ومن كل ما يجعل عمله ونضاله مقدساً في ناظريه"⁽⁵⁾.

فالمجتمع حسب بن نبي يعيش متفسخاً، فقد استولت عليه الجراثيم والأمراض وتكاثرت مع الزمن فهو لم يعد يقدر على ردها لأن جهازه المناعي قد انهار، ولما كان الهدف من التغيير عنده هو البناء الحضاري، فإن

الهدف كي يتحقق لا يكون بتبديل بناء حضاري ببناء حضاري آخر، ولا سد فراغ حضاري تعيشه شعوب العالم الإسلامي وإنما هي تحديد الداء الذي يشكو منه هذا العالم من منظوره التاريخي ليس إلا⁽⁶⁾، لأن هناك من رأى أن أزمتنا أزمة سياسية فبحث عن حلول سياسية وهناك من رآها أخلاقية تستلزم حلاً أخلاقياً، لكن حسب بن نبي فإنهم لم يحددوا بدقة مكمّن الأزمة، فتوجهوا إلى عرض من أعراضها في حين أن المرض يكمن في نفس المسلم وفي ثقافته الموروثة، كما هو كامن في سلوكاته وتصرفاته⁽⁷⁾، والأمراض التي أدت إلى تقاعس الهمم كثيرة وسنذكر أهمها:

1- الترف والتكديس:

وقف ابن خلدون طويلاً في مقدمته عند مسألة الترف، واعتبره حتمية ترتبط بعملية التحضر بانتقال الجماعات البشرية من البداوة والتنقل في الصحراء إلى الغنى والحضارة والاستقرار وعالج المسألة من جانبيها الأخلاقي والاقتصادي، فبين في الأولى ما يؤول إليه الترف من تفسخ في الأخلاق وركود في الهمّة فينعكس بالضرورة على مسيرة الحضارة، ويأذن بتوقف تدفقها الإبداعي وبالتالي انحلالها ودمارها ويبين في الثانية ما يعنيه طغيان الترف في مجتمع ما من اختلال في التوازن بين الانتاج والاستهلاك، ومن تضخيم للنزعة الاستهلاكية على حساب التنمية والعطاء، الأمر الذي ينعكس هو الآخر سلباً على التطور الحضاري.

وأشار مالك بن نبي في مؤلفاته إلى مصطلح التكديس الذي يتولد عن الترف، فيجعل الإنسان ينصرف عن قيم الإسلام وأخلاقه ومثله السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ويجعله حبيس المادّة وإغرائها، فينغمس في المفساد والانحرافات والأمراض الاجتماعية، وهذا ما يؤدي إلى إفساد قوى المجتمع العقلية والجسدية وإلى هذّ المجتمعات من الداخل، وبذلك يكون سبباً في التدهور الحضاري للأمم. فالمجتمع الإسلامي ظن أن امتلاك التكنولوجيا العصرية واقتناء المعدات التي ليست من صنعه هي التي تدخله عالم الحضارة والتحضر وهو بذلك لا يعي أنّ "الحضارة هي التي تلد

منتجاتها"⁽⁸⁾، وليس العكس، فالعالم الإسلامي يعمل منذ نصف قرن على جمع أكوام من منتجات الحضارة أكثر من أن يهدف إلى بناء الحضارة.

فالمشكلة إذاً أننا نشترى ونستورد ما لا نستعمله، فننفق ثروات هائلة في أشياء يكون مصيرها التكديس والعطب في مكاتبنا أو بيوتنا أو أسواقنا، فالموظف عوضاً من أن يضع في مكتبه جهاز هاتف واحد يضع عدّة أجهزة، فما يكون منه إلا استعمال واحد، وتكديس البقية طبعاً فهو يرى في ذلك تحضراً وتقدماً.

والدولة قد تسعى إلى استيراد كميات هائلة من المنتجات التي نحن في غنى عنها، فيكون مصيرها التكديس ثم الفساد ثم يتخلص منها، وهذا التكديس قد يكلف الاقتصاد الوطني خسائر فادحة وبالتالي يهدده دائماً بالتخلف والضعف.

ونفسية التكديس مزروعة في نفسية كل واحد منا، فقد نفتني أشياء لا نستعملها إطلاقاً، بل نكتفي بتكديسها ووضعها على جنب.

ويشير مالك بن نبي إلى نوع آخر من التكديس، وهو على مستوى الأفكار، هذه الأفكار التي تكون وليدة المجتمع أو مستوردة من مجتمع آخر لكن تكون فاقدة لفعاليتها، لأنها لا تستطيع القيام بدورها في البناء الحضاري، فتكون مجرد تكديس لا نفع منه "فعالم أفكارنا لا يمثل بناية ولكن مجرد كدس من الأفكار، أعني صعوبة أو استحالة إقامة بنية عقلية، إنما تمثل الانعكاس البسيط لافتقار عالمنا النفسي لبعد معين هو بعد الفكرة"⁽⁹⁾، فالمشكلة إذاً ليست في الأفكار من حيث الكم وإنما من حيث الكيف، فمجتمعنا ليس بحاجة إلى أفكار مشتتة، وإنما يهفو إلى الأفكار المسيرة للطاقات، والتي تصنع السهم الذي يعين للجماعة طريقها في التاريخ.

فحل مشكلة التكديس الفكري والمادي تنطلق من نفسية كل فرد منا، وذلك بالاكْتفاء بالضروريات والتخلص من الكماليات التي لا نحتاجها، وتوليد

الأفكار التي نضمن لها الحياة في مجتمعنا ومقتضياته، ولو كانت أفكاراً بسيطة لأن عالم الأفكار يعتبر الشراع الذي يحرك سفينة الحياة الاجتماعية.

2- التحلل الخلقي والسلوكي:

ومن الأسباب كذلك التي تؤدي إلى فتور الهمم، انتشار الفواحش والمعاصي في المجتمعات دون السعي إلى تغييرها، لأن المعصية إن صدرت عن فرد وأتى بها خفية كان ضررها مقتصرًا عليه لا يتعدى إلى غيره، أما إذا سادت المعصية في المجتمعات ولم تجد من يحاربها، دبّ حينئذٍ ضرر الفاحشة في العامة والخاصة، لم يبق وبالها مقتصرًا على مرتكبيها، ونخرت في جسم الأمة كما ينخر الوباء في جسم المريض وقدم القرآن الكريم نموذجاً عن ذلك قوم لوط.

ومما لا شك فيه أن القيم الأخلاقية وليدة عقيدة الإيمان بالله، وحيثما غاب الإيمان أو انحرف عن مسار التوحيد فإن النتيجة هي ظهور الفساد في البر والبحر، الذي يؤذن بالتدهور والسقوط.

"ومن الأمور المنطقية في قضايا الحضارات، أن الحضارة لا تتجدد ولا تقوم مرة أخرى إلا في إطار منطلقها الأول وخصائصها الذاتية، واستحضار ماضيها وربطه بحاضرها، لأن الانسلاخ عن منجزات التاريخ أمر مستحيل"⁽¹⁰⁾

وبما أن الحضارة الإسلامية كان منطلقها روحياً، بدأ بنزول الوحي على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي بعث ليتّم مكارم الأخلاق، لأن الأخلاق هي أساس المعاملة، ولأن الأخلاق تضمن الحقوق والواجبات وتحقق العدالة الاجتماعية، فهي من العوامل الأساسية لاستقرار المجتمعات وبنائها.

3- تحلل مفهوم الأمة:

من المعلوم أن الوحدة هي عصب التصور الإسلامي وهي التي صنعت الحضارة الإسلامية، غير أنها تعرضت منذ العصر الأموي إلى مباحكات المتكلمين ، بتأثير الفلسفة اليونانية وظلالها المسيحية فانعكس ذلك سلباً على الفعل الحضاري، وإذا كان هذا العامل هو المحرك للحضارة الإسلامية فهو عامل لاستئنافها وتعديلها وترشيدها ويعزى تدهور الحضارة الإسلامية وركودها بعد زمن الشهود الحضاري للأمة الإسلامية، إلى تفكك وتحلل مفهوم الأمة فتراخى الانجاز الحضاري شيئاً فشيئاً، وآل الشهود إلى غياب بصفة تدريجية، وكانت النتيجة أن انتهت الأمة الإسلامية إلى وضع العطالة الحضارية.

فالإسلام أسس منذ ظهوره لمفهوم الأمة، حيث أذاب كل الحواجز الإنسانية من لون وعرق وبيئة وجنس، وقد أتاح ذلك الفرصة لتلاقح الخبرات وإغناء الحضارة الإسلامية بالمزيد من الخصب والعطاء لكن ما لبث أن ظهرت على الأفق النزاعات التفكيكية عبر التاريخ الإسلامي منذ عهود مبكرة، وهذا وغيره أدى إلى تفتيت قدرات الأمة ومنعها من أن تصب في بؤرة الفعل الحضاري.

ولكن الأخطر من ذلك في رأي مالك بن نبي أن هذه الإصابة قد انتشرت ولحقت جميع النظم والأبنية الإسلامية الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

4- عقلية السهل والمستحيل:

يرى مالك بن نبي أن الإنسان في صراع بين قوتين: "قوى سلبية تريد إرجاعه إلى الوراء باستغلالها طبيعة الاستقرار في الإنسان، وقوى إيجابية تدفعه إلى الأمام إلى تحقيق مستقبله، فينبغي ألا تضعف القوى الإيجابية فينا عن الوصول إلى الحضارة"⁽¹¹⁾، وقد حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من الوهن في الحديث الذي يقول فيه: "توشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: أو من قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير،

ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال حبّ الدنيا وكراهية الموت⁽¹²⁾.

فالوهن إذا هو اللهث وراء الماديات والشهوات، دون الاكتراث بالوسائل والطرق المستخدمة في ذلك، فيبيع الإنسان آخرته بزيادة قليل في الدنيا، وأشار مالك بن نبي أن الوهن الذي أصاب الأمة الإسلامية راجع إلى سببين: أحدهما حكم الاستحالة والآخر نفسية التساهل، فيقول في ذلك: "إن أول الأبواب إلى الحضارة أن نواجه المشكلات مستبشرين لا متشائمين، فإذا ما واجهنا الأمور متشائمين فقد أصبحت في حكم استحالة، ومن العبث أن نفكر بأننا نستطيع التغلب على المستحيل... فقد أصبحنا نقول مسبقاً إذا سئلنا لماذا لا تفعلون هذا الأمر؟ إنه مستحيل. ويقابل هذا في الخطورة نفسية التساهل، إذا ما نظرنا إلى الأشياء على أنها أمر تافه لا قيمة له. فقد نظرنا إلى اليهود ونحن في الجزائر نظرة الاحتقار، فلم نقدر قوتهم بينما هي واضحة وخاصة في المجال السياسي والاقتصادي... ومع ذلك فقد قلنا حثالة حقيرة، حينما ننفخ عليهم نفخة واحدة يطيطرون، ولكنهم للأسف لم يطيطروا، فينبغي علينا أن نتخلص من نفسية المستحيل ونفسية التساهل، فليس هناك شيء سهل وليس هناك شيء مستحيل، فهذا الضعف الذي أصاب الأمة الإسلامية على المستوى النفسي، إنما هو ثمرة من ثمار الاستعمار، غرسها في الشعوب ليحكم قبضته عليها، لأنه يعي جيداً أنما الهمم هي التي تحطم المستحيل وتركب الصعاب⁽¹³⁾، فبنفسية السهل زرع الكسل والخمول وبنفسية المستحيل زرع الشلل والسكون التام في الهمم، وبذلك ضمن وجود جيل يتخبط في وهن وضعف عميقين على المستوى النفسي والانفعالي، فأصبح خائر القوى ضعيف الإرادة، فسهل السيطرة على فكره وميوله.

5- القابلية للاستعمار:

يشير مالك بن نبي إلى مشكلة أخرى يعاني منها الفرد المسلم، تقف في وجه تقدمه وتطوره وهي قابليته للاستعمار، فرغم أن الإنسان الجزائري افتك استقلاله من المستعمر بفضل تضحيات أبطاله، إلا أنه لا زال يعاني

من تبعات ومخلفات تركها الاستعمار في نفسيته، فالاستعمار يسعى جاهداً أن يخلق "بطالة يحصل من ورائها على يد عاملة بثمن يخنس فيجد منا متقاعدين، بينما الأعمال الجدية تترقب منا الهمة والنشاط، وهو يريد منا جهلة يستغلهم، فيجدنا نقاوم ذلك الجهد البسيط المبذول عندنا ضد الأمية، وهو يريد منا انحطاطاً في الأخلاق كي تشيع الرذيلة بيننا... وهو يريد تشتيت مجتمعنا وتفريق أفراد شيعاً وأحزاباً، حتى يحل بهم الفشل في الناحية الأدبية، كما هم فاشلون في الناحية الاجتماعية، فيجدنا متفرقين بالسياسات الانتخابية، التي نصرف في سبيلها ما لدينا من مال وحكمة وهو يريد منا أن نكون أفراداً تغمرهم الأوساخ، ويظهر في تصرفاتهم الذوق القبيح حتى نكون قطيعاً محتقراً، يسلم نفسه للأوساخ والمخازي، فيجدنا ناشطين لتلبية دعوته... فكلما شعرنا بداء المعامل الاستعماري الذي يعترينا من الخارج، فإننا نرى في الوقت نفسه معاملاً باطنياً يستجيب للمعامل الخارجي ويحط من كرامتنا بأيدينا ... إن القضية عندنا منوطة أولاً بتخلصنا مما يستغله الاستعمار في أنفسنا من استعداد لخدمته، من حيث نشعر أو لا نشعر" (14).

فالاستعمار حسب مالك بن نبي فكرة قبل أن يكون واقعاً معيشاً، فرغم أن معظم الشعوب الإسلامية تتمتع بالاستقرار السياسي، إلا أنها لا زالت تعاني من وطأة الاستعمار على المستوى الفكري، وهذا ما ينعكس سلباً على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، "إن الاستعمار لا يتصرف في طاقتنا الاجتماعية إلا لأنه درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة، أدرك منها موطن الضعف فسخرنا لما يريد، كصواريخ موجهة يصيب بها من يشاء فنحن لا نتصور إلى أي حدّ يحتال لكي يجعل منا أبواقاً يتحدث فيها وأقلاماً يكتب بها، إنه يسخرنا وأقلامنا لأغراضه، يسخرنا له بعلمه وجهلنا" (15).

فالمجتمع الإسلامي لا بدّ له من التفتن لهذه الممارسات التي يسعى الاستعمار لتطبيقها في المجتمعات الإسلامية، فبعدما عجز عن سلب الشعوب العربية الإسلامية هويتها بشتى الطرق الوحشية التي تطبع أي مستعمر وإن اختلفت الأسماء والمسميات، فما كان منه إلا أن مارس استعماراً من نوع

جديد وهو استعمار الأفكار، فعمد إلى "امتصاص القوى الواعية في البلاد المستعمرة بأية طريقة ممكنة حتى لا تتعلق بفكرة مجردة، ومن البديهي أنه سيحاول أولاً تعبئتها لحساب فكرة متجسدة تجسداً تصبح معه أقرب إليه منالاً. لأنه يمكن مقاومتها إما بوسائل القوة أو بوسائل الإغراء، على أن الاستعمار لن يسلك هذا الطريق فقط، بل إنه سوف يواصل في الوقت نفسه حربه ضد الفكرة المجردة بوسائل ملائمة فيها أكثر مرونة، ويستعين من أجل ذلك بخريطة نفسية للعالم الإسلامي"⁽¹⁶⁾

فالاستعمار يعرفنا أكثر مما نعرف أنفسنا، وهو يبحث كل يوم عن نقاط ضعفنا ليحكم قبضته علينا وعلى أفكارنا، إما بؤاد هذه الأفكار في مهدها، وإما بتهجير عقولنا للاستفادة من أفكار شبابنا التي لم تجد في أوطانها أرضاً خصبة للنماء والإثمار.

والاستعمار في نظر مالك بن نبي ليس إلا نتيجة طبيعية للقابلية للاستعمار، فإذا ما تفسخت أوضاع المجتمع الاجتماعية والثقافية والاقتصادية وفقد المجتمع قدرته على الاستمرار في أداء نشاطه الوظيفي، في هذه الحالة يصبح مجتمعاً مستعمراً، لكن مالك بن نبي يرى أن الاستعمار رغم وحشيته ودنائه هو عامل يحرك المجتمع من جديد لاسترجاع نشاطه الاجتماعي، فيتخلص بذلك من ذلّ الشلل والخمول، ليعود ويشق طريقه نحو البناء فالثورات التي تولدت عن الاستعمار في البلدان العربية كثيرة نجم عنها حراك اجتماعي في صورة أحزاب سياسية وحركات إصلاحية، سعت إلى تجميع قوى المجتمع من أجل القضاء على الاستعمار، لكن في نظر مالك بن نبي لا يمكن لهذه الثورات أن تحقق مبتغاها الحضاري إلا إذا استطاعت أن تغير الإنسان وتصفيه من القابلية للاستعمار وذلك بأن تعيد بلورة السلوك الاجتماعي للفرد لكي يعود بدوره لتشكيل مجتمع وظيفي، ولكي نبرز هذه الفكرة من منظور مالك بن نبي يمكن ملاحظة هذه المعادلات الرياضية:

المجتمع = الوظيفة التاريخية.

القابلية للاستعمار = فقدان الوظيفة التاريخية.

فالقابلية للاستعمار: "باعتبارها عاملاً مكبهاً لكل جهد اجتماعي توضح عدم تأهيل الإنسان المسلم لتشييد حضارة، فهي تشكل أمامه سداً يمنعه من دخول التاريخ واندفاعه فيه من جديد، هذا التاريخ الذي أقصى منه منذ سقوط دولة الموحدين، إن هذه القابلية هي التي طبعت على نفسية الفرد اللافعالية وحددت السمة العامة للسلوكات والثقافة والأفكار في المجتمع، إنها تشبه المرض الذي يعرض المجتمع إلى الاستعمار تماماً، كنقص المناعة الذي يعرض جسم الإنسان لأخطار الأمراض، فكل الإشارات البارزة التي تجعل المجتمع في وضعية سابقة على الاستعمار توجد هنا مجتمعة ... فالقابلية للاستعمار هي التي قدمت الشعوب المغلوبة على أمرها غنيمة سهلة للاستعمار"¹⁷. ولهذا فعلى الشعوب المسلمة التصدي لكل الأفكار التي تجعلها تخضع للمستعمر، وأن تنتج أفكارها وتضمن لها الاستمرارية والنجاح في مجتمعها وترعاها حتى تأتي أكلها، وبذلك تقضي على فكرة القابلية للاستعمار.

فالأمر أخطر مما نتصور فمحاربة الاستعمار الذي يغزو البلدان الإسلامية أسهل بكثير من محاربة الاستعمار الذي يقبع في أفكارنا وثقافتنا وسلوكنا، لأنه استعمار من طراز آخر، وهو كالمرض الخبيث الذي ينخر في جسد الأمة، ولا ندرك مدى خطورته إلا بعد أن يقضي تماماً على هذا الجسم ويحطمه.

6- التبعية الاستعمارية:

بما أن الحضارة إنجاز لا يمكن أن يوهب أو يشتري أو يستورد، فإن ابن نبي أولى كل اهتمامه لتحريك الإنسان المسلم نحو العطاء والإنتاج، لأن المقياس الذي انطلق منه أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها، وسيكون من السخف والسخرية عندما نريد أن نعكس هذه القاعدة، فنسعى لصناعة حضارة من غير منتجات، والأدهى والأمر حينما نريد صنع حضارة من منتجات غيرنا، فنستورد أشياء الغرب ومنتجاته وحتى أفكاره، ظناً منا أنها الوسيلة المثلى للتقدم والازدهار، وبذلك نعيش التبعية في جميع مجالات حياتنا، فحالنا كالذي يريد معالجة أعراض المرض ونتائجه الظاهرة، بدل أن

يعالج أسبابه وأصوله الباطنة، فيظهر المرض في الظاهر كأنه قد اختفى، لكنه في الحقيقة لا يزال ينخر صحة المريض، ويستنزف قواه في الباطن، لهذا علينا معالجة تخلفنا بعدم الاستيراد، ونحاول قدر المستطاع أن ندرس مشاكلنا وأسبابها، والبحث عن حلول نصنعها ونخطط لها بأنفسنا لأن "المجتمع الذي لا يصنع أفكاره الرئيسية لا يمكن على أية حال أن يضع المنتجات الضرورية لاستهلاكه، والمنتجات الضرورية لتصنيعه، ولن يمكن لمجتمع في عهد التشييد أن يتشيد بالأفكار المستوردة أو المسطرة عليه من الخارج.... فعلى أن نكتسب خبرتنا وأن نحدد موضوعات تأملنا، وألا نسلم بأن تحدد لنا بكلمة علينا أن نستعيد أصالتنا الفكرية، واستقلالنا في ميدان الأفكار حتى نحقق بذلك استقلالنا الاقتصادي والسياسي"⁽¹⁸⁾.

فالتبعية تكبل المجتمع وتحول دونه والابداع. وتدفع بأبناء المجتمع المسلم إلى الدونية والتقليد وإلى تمثل أشياء الغرب وأفكاره، دون أي دراسة دقيقة وواعية للتمايز الحضاري الشاسع الموجود بين المجتمعات الإسلامية والمجتمعات الغربية، فنجد أنفسنا نردد بعض المصطلحات التي فقدت الحياة بمجرد قلعها من بيئتها الحضارية الغربية، فنحاول زرعها في بيئة أخرى دون جدوى من أن تعطي أكلها، لأن الحضارة الغربية ترمي بهذه الأفكار عن طريق مرادها لتظل الحضارة الإسلامية تابعة لها لا مبدعة، يقول مالك بن نبي "الواضح أن المشكلة التي تطرح نفسها لا تتعلق بطبيعة الثقافة الغربية، بل بالطبيعة الخاصة بعلاقتنا بها، فالطالب المسلم الذي يلتحق بمدرستها هو بين نموذجين: الطالب المجد، والطالب السائح، وكلا الطالبين لا يذهبان إلى منابع الحضارة، بل إلى حيث تنقتر فيها أو تلقي فيها نفاياتها"⁽¹⁹⁾.

فعلى المسلمين التعامل مع الحضارة الغربية كما تعامل معها الإنسان الياباني، الذي ابتعد عن القشور وأخذ اللب والجوهر، فتمكن من استيعاب العلوم الغربية التي تمثل سر شموخ هذه الحضارة، دون أن يؤدي ذلك إلى فقدان الهوية، والسقوط في التبعية والتقليد.

7- نزعة التسامي والتعالي:

من المشاكل التي يعاني منها المجتمع الإسلامي نزعة الكمال التي تولدت عن مركب النقص الذي توارث في نفسية الأجيال أبا عن جد، ذلك بما خلفه الاستعمار في نفسية الشعوب من إحساس بالدونية. هذا ما جعل ردّ فعل معاكس ينتج عند الناشئة وهو التغني بأمجاد الماضي وأعمال السلف كلما تعلق الأمر بحال حضارتنا وواقع مجتمعاتنا فالذات العربية بشكل عام تسلك مسلكا سحريا يتمثل في النكوص إلى الوراء، عن طريق امتداح الماضي وفق أدب الفخر وذكر مناقب السلف، والخطاب الرومنسي الحالم وبدلا من أن يثمر العمل ويخلق في الذات الرغبة القوية في التقدم نحو النموذج الغالب، خلق مرضا نفسيا تمثل في التعالي الذي يعكس أزمة تجلت في سلوك اضطرابي مفعم بالهيجان العاطفي المدمر، ومن أبرز نتائجه تعدد النكسات والهزائم المتكررة، فعقدة التسامي هي إحدى العوائق والأمراض الثقافية التي جعلت العقل العربي والإسلامي عاجزا عن فهم مشكلاته الحقيقية، وهذا ما ذهب إليه عبد اللطيف عبادة حين قال: "إن استخدام نزعة المديح وأدب الفخر والتمجيد كوسيلة للتغلب على مركب النقص الذي اعترانا إزاء سلطان الثقافة الغربية، واضح أنهما وسيلته للتخدير والتسلية، تعزل الفكر والضمير عن الشعور بالمتاعب الحقيقية."⁽²⁰⁾، وهذا نفسه ما ذهب إليه مالك بن نبي في قوله: "فحين اتجهت الثقافة إلى امتداح الماضي أصبحت ثقافة أثرية، لا يتجه العمل الفكري فيها إلى الأمام بل ينكص إلى الوراء، وكان هذا الاتجاه الناكص المسرف سببا في انطباع التعليم كله بطابع دارس لا يتفق ومقتضيات الحاضر والمستقبل، وبذلك أصيبت الأفكار بظاهرة التشبث بالماضي كأنها قد أصبحت متنفسا"⁽²¹⁾. فهذه العقلية ولدت مرضا آخر وهو مرض الشعور بالكمال فظهرت عقلية نحن مسلمون إذن نحن كاملون.

وهذا المرض بالنسبة لمالك بن نبي يفتك بكل بصيص أمل لتغيير أحوالنا، فبينما يبحث المجتمع الغربي عن شروط النهضة والتقدم ويقتبس من الإسلام ما يساعده على ذلك، طبعا دون أن يعترف بذلك، نجد أنفسنا أمام واقع مجتمع إسلامي غارق في حكايات الماضي وسرد تاريخ الآباء والأجداد، لكن هذا لا يعني أن مالك بن نبي قد كان معاديا للأصالة، بل بالعكس كان معترزا بانتمائه العربي الإسلامي، لكنه سعى إلى أن يعرف المسلم ثقافته معرفة حقيقية، وأن يعود إلى أصوله وجذوره العقديّة والفكرية والأخلاقية ويسعى إلى تحويل

اعتزازه النظري والعاطفي إلى سلوك عملي، وإلا أصبح هذا الاعتزاز ظاهرة مرضية إذا ما ظل مجرد كلام يردد وشعارات ترفع، وصيحات تتعالى لسرد الأمجاد وتعظيم الأجداد.

8- داء اللفظية:

عندما يعجز العقل عن التفكير والإبداع يتجه السلوك العام للإنسان إلى مواطن القداسة وأهمها اللغة وتصبح الألفاظ معيار الكمال وتتمام التعليم، واللفظية في أمتنا جعلت المثقف والفقير يرى كماله في لسانه. فيسعى للبحث عن الشهرة ويصبح الهوس بالكمال كالهوس بالمخدر، ويزيد الأمر تعقيدا حينما ينفصل القول عن العمل فيصبح الكلام قاتلا لصاحبه وهو لا يدري، يقول مالك بن نبي: "وهنا يؤدي بنا المقام إلى الحديث عن الحرفية فلقد أبدعت العبقريّة العربيّة أجمل لغات العالم، ولكن هذه العبقريّة كانت في موقفها مما أبدعت كالمثال الذي هام بتمثاله وقد أبدع مناقشه، والغرام بالكلمات أخطر من الغرام بالمعدن أو الرخام أو الحجر، فهو يؤدي أولا وقبل كل شيء إلى أن يفقد الإنسان حاسة تقدير الأمور على وجهها الصحيح، وهو أمر ضروري لكل جهد إيجابي من أجل البناء"⁽²²⁾. وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إنكم في زمان كثير علماء قليل خطباء، وسيأتي بعدكم زمان قليل علماء كثير خطباء، فمن كثر علمه وقل قوله فهو الممدوح، ومن كان بالعكس، فهو مذموم."⁽²³⁾

فالتنمق في الكلمات، واحتراف الخطابة من الأئمة والسياسيين والنقابيين والمسؤولين يجعل الناس يفتنون ببريق الكلام والوعود، إلا أنهم سرعان ما يصطدمون بواقع يتناقض تماما وفحوى هذه الخطابات "فالغرام بالكلمات يفقد الإنسان فاعليته وتصبح هناك فجوة بين الكلام والعمل"⁽²⁴⁾. وهذه الاحترافية تختلف مرضا آخر لا يقل خطورة عن داء اللفظية، وهو احتراف الثقافة ومعناه أن تتحول الثقافة من رسالة حضارية إلى وسيلة لاكتساب الخبز، وعليه تصبح مجرد حرفة أو مهنة، ومرض الحرفية يتسم بمظاهر سلبية لفرزها الذات المهزومة وتظهر في سلوك "التعالم" والذي نلاحظه في شتى نواحي الحياة العامة والخاصة، فإنسان ما بعد الموحدين ما إن يتعلم حروفا

حتى يخال نفسه صار عالما ومفكرا، والصعوبة تكمن في انعكاس هذا البلاء على التربية والتعليم، وعلى الرأي العام من خلال وسائل الإعلام، وعلى الدين من خلال الإمام المتعالم، يقول مالك بن نبي: "والحقيقة أن منذ خمسين عاما نعرف مرضا واحدا يمكن علاجه هو الجهل والأمية، ولكننا اليوم أصبحنا نرى مرضا مستعصيا هو التعالم، وإن شئت فقل الحرفية في التعلم، والصعوبة كل الصعوبة في مداواته وهكذا أتيح لجيلنا أن يشهد خلال النصف الأخير من هذا القرن ظهور نموذجين من الأفراد في مجتمعنا، حامل المرقعات ذي الأظمار البالية وحامل اللافتات العلمية." (25)

9- تحليل العلاقات الاجتماعية:

وهذه الأمراض حين تنخر في مجتمع ما فإنها تهدد كيانه بالفساد وتقوض معالمه المتمثلة في جهاز الدولة وشبكة العلاقات الاجتماعية. فإننا إذا عدنا للمجتمع المسلم في بدايته نجد أن "أول عمل قام به المجتمع الإسلامي هو الميثاق الذي يربط بين الأنصار والمهاجرين، وكانت الهجرة نقطة البداية في التاريخ الإسلامي، لا لأنها تتفق مع عمل شخصي قام به النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن لأنها تتفق مع أول عمل قام به المجتمع الإسلامي، أي مع تكوين شبكة علاقاته الاجتماعية، حتى قبل أن تتكون تكونا واضحا." (26)

فالإسلام سعى دائما لأن يكون المسلمون أمة واحدة، تربطهم أواصر المحبة والأخوة والإيثار، فلا يكتمل إيمان المسلم حتى يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه، لأن قوة الأمة تنبع من شعور الإنسان أنه شخص من مجموعة فيعمل على بقائها وتطورها، لكن إذا تحللت هذه العلاقات، أصبح المجتمع في موقف يُهدد فيه بالانهيار، وهذا ما أشار إليه ونبا به النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف: "يوشك أن تداعى الأمم عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا: أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: لا، بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السبيل، ولينزع الله من صدور أعدائكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن، قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكرهية الموت." (27)

فالرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث استحضر صورة العالم الإسلامي بعد أن تتمزق شبكة علاقاته الاجتماعية أي عندما لا يعود مجتمعا، بل مجرد تجمعات لا هدف لها ولا طموح ولا مصالح مشتركة، فهي كغثاء السيل، ومالك بن نبي يرى أن أول عمل "في طريق التغيير الاجتماعي هو العمل الذي يغير الفرد من كونه فرداً « Individu » إلى أن يصبح شخصا « Personne » وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزاعات اجتماعية تربطه بالمجتمع." (28)

10- المفهومية:

ومن المشاكل التي يعاني منها المجتمع العربي الإسلامي أيضا مشكلة المفهومية التي خصص لها مالك بن نبي محاضرة "ألقاها باللغة الفرنسية في الجزائر العاصمة بتاريخ: 1964/02/24 ونشرت كاملة بجريدة الشعب الفرنسية في فيفري سنة 1964" (29) وقد اعتبر مالك بن نبي أن مشكلة المفهومية تعد بصورة عامة جزءا من ظاهرة القرن العشرين الذي تم تعميده عند ميلاده باسم قرن البخار. وحسب مالك بن نبي هذه الحركة المتسارعة للتاريخ قد ولدت حربا ثالثة بعد الحرب العالمية الثانية وهي حرب المفهومية، فظهرت الديمقراطية والاشتراكية والسلام وأصبحت فواتح لجميع الدساتير الوطنية، وأصبحت هذه المفاهيم تشكل مبادئ مفهومية عالمية، لكن حسب بن نبي هذه الثلاثية لم تتشكل وحدتها داخل العالم لأن العالم في نظره يحتوي على "المناطق البيضاء المنبثة هنا وهناك للبلدان التي توجد في حالة تقاعد بالنسبة إلى المعركة المفاهيمية، أعني البلدان المتغنية فعلا على المأساة البشرية الكبرى لعصرنا." (30) ، فهذه المناطق من العالم المتخلف حسب بن

نبي لا يمكن أن تستفيد من هذه المفاهيم كوسائل للتقدم، أولاً لأن مشكلة المفهومية "تثار على المستوى الوطني داخل كل بلاد فرضت فيها شروطها الخاصة ضمن طور معين من أطوار تاريخها، أنماط من العمل الجماعي... ودراسة هذا النشاط ترجع بنا على أي وجه إلى دراسة المقومات التي يقوم عليها تركيبها." (31)

فهذه المفاهيم لا بد لها من صامولة لتحريكها وتفعيلها داخل الفرد أولاً ليتحقق هذا النشاط الجماعي. "وفي هذه الآونة يوجد في الجزائر فراغ مفاهيمي في نفس الحد الذي لم يع فيه الشعب الجزائري بعد بما فيه الكفاية البواعث المعللة الجديدة لنشاطه المشترك." (32)، وهذا مشكل عويص يواجه عجلة التقدم والتطور لأي بلد، فما بالك ببلد أنهكه الاستعمار ونهب خيراته أكثر من قرن من الزمان.

وقد أشار مالك بن نبي إلى الطريقة المثالية للقضاء على هذه المشكلة واستئصالها من جذورها. فالطريقة المثلى: "تتمثل في تصفية راسب العسف المتخلف عن العهد الاستعماري، ومجموع ضروب العطالة التي ندين بها إلى القابلية للاستعمار، وفي الاضطلاع بالبناء الاشتراكي وفي توجه البلاد صوب قبلة منتمى جماعتها التاريخية المغربية والعربية والإسلامية" (33)

كما بين مالك بن نبي وشدد على ضرورة أن تشرع الجزائر وباقي البلدان العربية بمعالجة هذه المشكلة لأن المشاكل حسبها تتضاعف وتتعدد بمرور الزمن عليها، فالمشكلة التي يمكن حلها الآن، قد تتعقد ويصعب الوصول إلى حلها بعد زمن، لأن آلياتها ستختلف والتداعيات المحيطة بها قد تتغير، مما يستوجب إيجاد حلول أخرى ووسائل أقوى.

خاتمة:

لقد قدم المفكر الجزائري مالك بن نبي في أكثر من ثلاثين عاما تحليلا دقيقا للواقع الإسلامي، قام على رؤية علمية موضوعية، محاولا الوقوف على أسباب المشكلة لا أعراضها للوصول إلى حلول تقضي على المشكلة من جذورها وقد استفاد في ذلك من استقراء تاريخ المجتمعات الإنسانية، فتوصل إلى أن مشكلة العالم الإسلامي هي مشكلة حضارية، تستوجب حلاً حضارياً متكاملًا في شتى الميادين، لأنه لا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلة ما لم يرتفع بفكره إلى الأحداث الإنسانية، ويتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات وتهدمها.

وقد أولى مالك بن نبي جل اهتمامه للإنسان كونه صانع الحضارة، ورأى أن مشكلة الإنسان المسلم تكمن داخله فقد ورث عن عصر ما بعد الموحدين أمراضا جعلت إرادته الحضارية تفتقر وتخفت، وكادت قابليته للاستعمار تقضي على كل بادرة تغيير تظهر في المجتمع، ولم يبق له في ظل هذه الظروف إلا تبني التكديس والفوضى في حياته، ظناً منه أنه الحل الوحيد للشعور بالتحضر، فكدّست الأفكار والأشياء وفقدت فعاليتها المرجوة في تطور المجتمع والأخذ بيده إلى الأمام.

الهوامش:

- 1 مالك بن نبي: "مجالس دمشق"، دار الفكر، دمشق، 2006، ط2، ص 67.
- 2 مالك بن نبي: "في مهب المعركة"، دار الفكر، دمشق، 1991، ط1، ص 50.
- 3 مالك بن نبي: "مجالس دمشق"، مصدر سابق، ص 75.
- 4 مالك بن نبي: "القضايا الكبرى"، دار الفكر، دمشق، 1991، ط1، ص 99.
- 5 المصدر نفسه ص 107.
- 6 ينظر: نورة خالد السعد: "التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي"، الدار السعودية للنشر والتوزيع، 1997، ط1، ص 174.

- 7 ينظر: بدران بن مسعود بن الحسن: "الظاهرة العربية في الوعي الحضاري، مالك بن نبي أنموذجا" مكتبة الأمة، قطر، 1999، ط1، ص 47.
- 8 مالك بن نبي: "القضايا الكبرى"، مصدر سابق، ص 48.
- 9 المصدر نفسه، ص 127.
- 10 محمد عبد المنعم خفاجي: "الإسلام والحضارة الإنسانية" دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص 121.
- 11 مالك بن نبي: "تأملات"، دار الفكر، دمشق، 1991، ط5، ص 30.
- 12 محمد ناصر الدين الألباني: "سلسلة الأحاديث الصحيحة" مج2، حديث رقم 958.
- 13 مالك بن نبي: "تأملات"، مصدر سابق، ص 30.
- 14 مالك بن نبي: "شروط النهضة"، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1987، ط4، ص 157.
- 15 المصدر نفسه، ص 159.
- 16 مالك بن نبي: "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة"، دار الفكر، دمشق، 1988، ط3، ص 15.
- 17 محمد بغداد باي: "التربية والحضارة بحث في مفهوم التربية وعلاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي" دار عالم الأفكار، الجزائر، 2006، ط1، ص 127.
- 18 مالك بن نبي: "حديث في البناء الجديد"، ترجمة عمر كامل مسقاوي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1959، ص 12.
- 19 مالك بن نبي: "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي"، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، دار الفكر، دمشق، 1992، ط1، ص 151.
- 20 عبد اللطيف عبادة: "صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي"، دار الشهاب، الجزائر، 1983، ص 61.
- 21 مالك بن نبي: "مشكلة الثقافة"، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، القاهرة، 1984، ط4، ص 50.
- 22 المصدر نفسه، ص 58.
- 23 زين الدين بن رجب، البغدادي الحنبلي: "فضل علم السلف على الخلف"، مطبعة النهضة، القاهرة، 1347هـ، ص 30.

- 24 علي القرشي: "التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر"، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1986، ص 175.
- 25 مالك بن نبي: "مشكلة الثقافة"، مصدر سابق، ص 50.
- 26 مالك بن نبي: "ميلاد مجتمع"، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الإنشاء، طرابلس، 1974، ص 28.
- 27 المصدر نفسه، ص 29.
- 28 المصدر نفسه، ص 31.
- 29 مالك بن نبي: "القضايا الكبرى"، مصدر سابق، ص 94.
- 30 المصدر نفسه، ص 94.
- 31 المصدر نفسه، ص 94.
- 32 المصدر نفسه، ص 103.
- 33 المصدر نفسه، ص 104.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1 الألباني محمد ناصر الدين: "سلسلة الأحاديث الصحيحة" مج 2، حديث رقم 958.
 - 2 ابن الحسن بدران بن مسعود: "الظاهرة العربية في الوعي الحضاري، مالك بن نبي أنموذجا" مكتبة الأمة، قطر، 1999، ط 1.
 - 3 ابن رجب زين الدين، البغدادي الحنبلي: "فضل علم السلف على الخلف"، مطبعة النهضة، القاهرة، 1347هـ.
 - 4 القرشي علي: "التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر"، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1986.
 - 5 السعد نورة خالد: "التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي"، الدار السعودية للنشر والتوزيع، 1997، ط 1.
 - 6 باي محمد بغداد: "التربية والحضارة بحث في مفهوم التربية وعلاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي" دار عالم الأفكار، الجزائر، 2006، ط 1.
- بن نبي مالك:

- 7 "مجالس دمشق"، دار الفكر، دمشق، 2006، ط2.
- 8 "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي"، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، دار الفكر، دمشق، 1992، ط1.
- 9 "في مهب المعركة"، دار الفكر، دمشق، 1991، ط1.
- 10 "تأملات"، دار الفكر، دمشق، 1991، ط5.
- 11 "القضايا الكبرى"، دار الفكر، دمشق، 1991، ط1.
- 12 "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة"، دار الفكر، دمشق، 1988، ط3.
- 13 "شروط النهضة"، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1987، ط4.
- 14 "مشكلة الثقافة"، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، القاهرة، 1984، ط4.
- 15 "ميلاد مجتمع"، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الإنشاء، طرابلس، 1974.
- 16 "حديث في البناء الجديد"، ترجمة عمر كامل مسقاوي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1959.
- 17 **خفاجي محمد عبد المنعم**: "الإسلام والحضارة الإنسانية" دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.
- 18 **عبادة عبد اللطيف**: "صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي"، دار الشهاب، الجزائر، 1983.